

جزاء السخرية بالمؤمنين

وفي آية أخرى قال تعالى في سورة (ص) لما ذكر أهل النار وما كانوا فيه، قال الله تعالى: { وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رَجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ } يعنون المؤمنين لا نراهم معنا في النار، { مَا لَنَا لَا نَرَى رَجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ أَتَّخَذْتَاهُمْ سِحْرِيًّا } يعني: كنا في الدنيا نسخر منهم وتنقصهم { أَمْ رَأَيْتُ عَنْهُمْ الْآبْصَارَ } يعني: أم ما رأيناهم احتقاراً لهم وتصغيراً لشأنهم وهم في النار { أَتَّخَذْتَاهُمْ سِحْرِيًّا أَمْ رَأَيْتُ عَنْهُمْ الْآبْصَارَ } . فهؤلاء أخبروا بأنهم كانوا اتخذوا أهل الإيمان سخرية، ومع ذلك ما رأوهم في النار، كأنهم يقولون: إننا نحتقرهم في الدنيا فلماذا ما رأيناهم معنا في العذاب؟ الجواب: أن الله تعالى أكرمهم ورفعهم، وأجزل لهم ثوابهم، وأنتم أيها الساحرون لما اتخذتموهم سخرية كان جزاؤكم أنكم في هذا العذاب الذي ذكر الله تعالى عظمه. فلا شك أن هذا أيضاً جزء من سخر بالمؤمنين، فإن السخرية بهم سخرية بالله الذي اختار لهم هذا الدين، فلا بد أنهم يعذبون ويوبخون على سخريتهم بالله تعالى وبدينه وعبادته. كذلك أيضاً ذكر الله تعالى عقوبة أهل النار في قوله تعالى في خطابه مع أهل النار الذين يقولون وهم في النار: { رَبَّنَا عَلَيْنَا سِفْقَتُنَا } أي شفاؤنا وكوننا أشقياء؛ فيطلبون من الله أن يخرجهم، يقولون: { رَبَّنَا عَلَيْنَا سِفْقَتُنَا } أي: ما حكم علينا بأننا من أهل الشقاء في الدنيا، ثم يطلبون الإخراج: { أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ } ذكروا أنهم يقولون أيضاً ذلك لمالك خازن النار: { أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ } فيجيبهم بعد مدة طويلة فيقول: { أَحْسِنُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ إِنَّهُ كَانَ قَرِيبٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَإِرْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِحْرِيًّا } سخرتم منهم لأجل دعائهم لله، ولأجل تمسكهم بشرع الله، اتخذتموهم سخرية { وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَصْحَكُونَ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا إِنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ } . فهذا حوار مع أهل النار وهم في النار، يعترفون ويقولون: { عَلَيْنَا سِفْقَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ } ثم يقولون: { رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا } من هذا العذاب الذي تناله في النار، فإن عدنا إلى ذلك الكفر فإننا نعترف بالظلم، فالله تعالى يجيبهم بقوله: { أَحْسِنُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ } احسنوا يعني ذلك إهانة لهم، بمعنى ذلوا وهونوا، كلمة اخساً يخاطب بها من يريد إهنته وإذلاله وتحقير شأنه، والإضرار به وعدم الالتفات إليه، وعدم الاهتمام به لحقارته ولسوء حالته، ولا تكلمون لا تدعوا بقولكم: { أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ } لأن من أعمالكم استهزاءكم بالمؤمنين في الدنيا، { إِنَّهُ كَانَ قَرِيبٌ مِنْ عِبَادِي } يعني: وهم أهل الإيمان وأهل الصلاح يدعون ربهم: { يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَإِرْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ } ينيبون إلى الله، ويدعونه وحده، ويطلبون منه المغفرة، ويطلبون منه الرحمة، ويتوسلون بأنهم مؤمنون، ويعترفون بأن ربهم أرحم الراحمين، فلما كانوا كذلك سخرتم منهم، اتخذتموهم سخرية، تنتقصونهم وتعيبونهم، وترمونهم بكل وصمة وبكل عيب، وتصحكون منهم، تصحكون على أعمالهم، { إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ } يعني في الدار الآخرة بالفوز بالجنان، { إِنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ } وأنتم الخاسرون، فهذا جزء من سخر بدين الله. وكذلك قال الله تعالى: { إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَصْحَكُونَ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَرُونَ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَبِئْسَ لَوْ أَنَّ هَؤُلَاءِ لَصَالُونَ } هذا أيضاً مما ذكره الله تعالى، المجرمون هم الكافرون الذين أجروا، من جرمهم ضحكهم بالمؤمنين { كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَصْحَكُونَ } سخرية وتقصا، يستهزئون بهم ويتكلمون بحالتهم، { مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَصْحَكُونَ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَرُونَ } يعني: على وجه السخرية، يشيرون إليهم: هؤلاء الضعفاء، هؤلاء المساكين، هؤلاء المخدوعين المغرورين الذين أضاعوا حياتهم، والذين أضاعوا نصيبهم، والذين صدقوا بما لا يصدقه العاقل. وهكذا { وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَرُونَ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ } وكانهم يتفكهون بأعراض المؤمنين، أو يتفكهون بما أعطاهم الله، ويتمدحون بما هم فيه من السعة في الرزق، ومن التوسعة في المال، ونحو ذلك، { وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَصَالُونَ } أي: تائهون خاسرون، إن هؤلاء الذين صدقوا الرسول صلى الله عليه وسلم، هم الذين أضاعوا حياتهم، وفاتهم الخير، وفاتهم الكرامات، وفاتهم التمتع والتلذذ في هذه الحياة الدنيا، هذه حالتهم. يقول الله: { قَالِ يَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَصْحَكُونَ عَلَى الْأَرَائِكِ يُنظُرُونَ } ينظرون إليهم وهم في النار فيضحكون منهم، ويقولون: هذه عاقبتكم لما كنتم في الدنيا تضحكون منا، فاليوم نحن نضحك منكم، يطلعون عليهم فيرونهم في العذاب -والعباد بالله-. كما في قول الله تعالى: { قَاقِلْ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ قَالِ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ يَقُولُ أَتِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَأَنْتَا لَمَدِينُونَ } يعني: يسخر منه ويقول: أتصدق بأننا بعد موتنا سنبعث ونجازى بالأعمال؟! { قَالِ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ } يعني ناظرون إلى النار { قَاطِلِعَ قَرَاهُ } رأى صديقه الذي كان يسخر منه { قَرَاهُ فِي سَوَاءِ الْحَجِيمِ } فحمد الله تعالى على ذلك لما راه في سواء الحجيم، وأخبر بأنه كان حاول أن يصله، فالحاصل أن هذه أدلة واضحة على أن من عادة الكفار أنهم يسخرون بالمؤمنين، وأنهم ينتقصون حالتهم، وأن الله تعالى كفرهم بذلك.